هل الكوارث والأوبئة عقاب من الله للبشر؟

القسّ سلام حنا
راعي الكنيسة الانجيلية المشيخية،
اللاذقية، سوريا

في الفترة الأخيرة، ازدادت صعوبات المعيشة في سوريّا، وبخاصّة على الصعيدين الماليّ والاقتصاديّ، إذ خسرت الليرة جزءًا كبيرًا من قيمتها. فانخفضت قيمة المداخيل، وارتفعت الأسعار، وضاقت سبل العيش بالنسبة إلى معظم السوريّين. وبحسب إحصاءات الأمم المتّحدة، يعيش أكثر من ثمانين في المئة من السوريّين اليوم تحت خطّ الفقر. وخطّ الفقر حدّدته المنظّمات الدوليّة بأنّه يبلغ دولارين في اليوم، أي خمسة آلاف ليرة سوريّة تقريبًا بحسب السعر الحاليّ. هذه الحقائق نعرفها جميعًا. لا نعرفها فقط، بل نعيشها ونختبرها ونعاني من نتائجها في كلّ لحظة وكلّ موقف. لن ندخل في تحليل أسباب وصول الأوضاع إلى ما هي عليه اليوم. فذلك يحتاج إلى اختصاصيّين. ولكن، باختصار، كلّنا يعرف أنّ هذه الأوضاع هي نتيجة لتسع سنوات من الحرب في بلادنا وعليها، بالإضافة إلى أسباب أخرى متنوّعة. وكلّها عوامل زادت تأزّم الوضع المعيشيّ.

إذا انتقلنا إلى دائرة أوسع، سنجد أنّنا لسنا وحيدين في المعاناة. فهناك كثير من الشعوب اليوم تعاني من أزمات ماليّة واقتصاديّة وبطالة وإغلاق شركات ومؤسّسات بسبب فيروس كوفيد ١٩. طبعًا، تختلف درجة المعاناة بين بلد وآخر. هنا، يطرح الإنسان أسئلةً عدّة: متى ستنتهي هذه الأزمات ومعها المعاناة؟ ومتى ستصبح الأمور أفضل؟ هل ما يجري معنا هو عقاب من الله لنا على شرورنا وخطايانا؟ هل خطايانا هي التي جلبت علينا هذه الويلات؟ ماذا يجب أن نفعل حتّى تصبح الأمور أفضل؟ ألا يفيد إيماننا وبرّنا وحسن سلوكنا في حمايتنا من مصائب الدنيا؟ هذه الأسئلة وغيرها تراودنا وتدفعنا إلى البحث عن أجوبة تروي ظمأنا فنقتنع بها ونرتاح.

علينا أن نعرف، أوّلًا، أنّ ما يجري معنا اليوم ليس الأزمة الأولى والوحيدة التي تمرّ بها البلد أو البشريّة، ولن تكون الأزمة الأخيرة أيضًا. فبمراجعةٍ لبعض أحداث القرن الماضي، سنجد كوارث محليّةً وإقليميّةً وعالميّةً كانت أشدّ فتكًا بالبشر وأكثر تدميرًا وقتلًا للإنسان من وباء كوفيد ١٩ المعاصر. وسأذكر بعضًا منها لندرك أنّ حياتنا منذ مطلع القرن الماضي تعرّضت لكوارث كثيرة اقترفتها أيدينا، حتّى إنّ ما خلّفته من دمار فاق بأشواط دمار الوباء الحاليّ.

بدأ القرن الماضي بالحرب العالميّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، التي ذهب ضحيّتها ستّة عشر مليون إنسان. العام ١٩١٥، ارتكب العثمانيّون مجازر بحقّ الشعب الأرمنيّ سقط خلالها أكثر من مليون ونصف المليون من الضحايا الأبرياء. العام ١٩١٨، اجتاح العالم فيروس الإنفلونزا الإسبانيّة، التي قضت على خمسين إلى مئة مليون إنسان وأصابت خمسمئة مليون شخص في العالم. ثمّ حصلت أزمة اقتصاديّة العام ١٩٢٩، اسمها «الكساد العظيم»، تلتها الحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، التي راح ضحيّتها ثمانون مليون إنسان. بعد ذلك نشبت الحرب الكوريّة (١٩٥٠-١٩٥٣) التي قضى فيها نيّف ومليون مليون إنسان. العام ١٩٤٨، حدثت نكبة فلسطين بفعل تأسيس الكيان الصهيونيّ على أرض فلسطين وما تبعها من نشوء قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين. وقد تبعتها النكسة العام ١٩٦٧، التي احتلّ فيها الكيان الصهيونيّ أرض الجولان السوريّة. بين العامين ١٩٧٥ و١٩٩٠، نشبت الحرب الأهليّة في لبنان، التي أسفرت عن موت مئتي ألف إنسان. ثمّ قامت حرب الخليج الأولى (١٩٨٠-١٩٨٨) بين العراق وإيران، التي شهدت موت مليون إنسان، فضلًا عن خسائر ماليّة بلغت أربعمئة مليار دولار، تبعها غزو الكويت العام ١٩٩٠. بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٣، حوصر العراق وتمّ تجويع شعبه. العام ٢٠٠٣، جرى غزو العراق من قبل أميركا، ولم تنتهِ نتائج هذا الغزو إلى اليوم. العام ٢٠٠٦، شنّت اسرائيل حربًا على لبنان، ودمّرت بنيته التحتيّة. العام ٢٠١١، بدأت الأزمة في سوريّا.

هذا غيض من فيض من كوارث العالم والمنطقة خلال مئة عام، والتي عايش كثر منّا أكثر من نصفها. أضف إلى ذلك الكوارث الطبيعيّة مثل الزلازل والأعاصير. هذه كلّها كوارث وأزمات أكثر فداحةً وفظاعةً ممّا نعتقد أنّنا نعانيه اليوم. المهمّ، هنا، هو السؤال الآتي: هل الكوارث، سواء كانت بشريّةً كالحروب أو طبيعيّةً كالأوبئة، هي عقاب من الله على خطايا البشر؟

لنتلمّس الجواب، سنرى ماذا يقول الربّ يسوع عن هذا الموضوع. في إنجيل لوقا ١٣/١-٥، نرى يسوع يتناول كارثتين ويخلص إلى موقف لاهوتيّ إيمانيّ. في القسم الأوّل، يعرض قوم حدثًا تاريخيًّا مأساويًّا يتلخّص في قتل بيلاطس عددًا من الجليليّين وخلطه دمهم بذبائحهم.

هل الكوارث والأوبئة عقاب من الله للبشر؟

القسّ سلام حنا

يتلخّص في قتل بيلاطس عددًا من الجليليّين وخلطه دمهم بذبائحهم. يسأل، هنا، الربّ يسوع سؤالاً مهمًّا: «أتظنّون أنّ هؤلاء الجليليّين كانوا خطاةً أكثر من كلّ الجليليّين لأنّهم كابدوا مثل هذا؟». ثمّ يجيب بصراحة ووضوح: «كلّا أقول لكم. بل إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون».

لا نعرف أيّ تفاصيل عن هذا الحدث. كما أنّنا لا نعرف لماذا قام بيلاطس بهذه الجريمة البشعة عبر خلطه دم الضحايا بالذبائح. ولا نعرف لماذا ذكر القوم هذا الحدث على مسامع يسوع. هل كانوا يريدونه أن يلوم بيلاطس أو أن يلوم الجليليّين؟ لكن من الواضح أنّ هؤلاء الجليليّين، الذين يعيشون في شمال فلسطين - ويسوع كان «جليليًّا» مثلهم - ذهبوا إلى أورشليم لتقديم الذبائح بحسب ما تقتضيه الطقوس اليهوديّة، وهذه فريضة دينيّة كانت تجري في العادة خلال الفصح. ولقد قاموا بهذا في زمن بيلاطس البنطيّ، الحاكم الرومانيّ لمنطقة يهوذا في فلسطين، والذي أصدر لاحقًا حكمًا بصلب يسوع، فصار اسمه مشهورًا.

كان بيلاطس، كما نعلم، حاكمًا رومانيًّا مباشرًا لليهوديّة بين العامين ٢٦ و٣٦ للميلاد. وقد عيّنته روما بعد عزل أرخيلاوس عن حكم اليهوديّة والسامرة في العام الميلاديّ السادس، وذلك لأنّه لم يكن مؤهّلًا لهذه المهمّة. كانت مهمّة الولاة الرومان مثل بيلاطس هي الحفاظ على الأمن والسلام على الطريقة الرومانيّة. فـ «السلام الرومانيّ» هو السلام عبر الحرب والعنف والانتصار، لا عبر إحقاق العدل. ولكي يقوم بيلاطس بقتل الجليليّين وخلط دمهم بذبائحهم، لا بدّ من أن هؤلاء قاموا بتمرّد في أورشليم عندما كانوا يقدّمون ذبائحهم في الهيكل. وهذا ليس أمرًا مستغربًا لدى كثر من اليهود، ولا سيّما إذا كانوا من الغيوريّين، الذين لا يستسيغون فكرة الاحتفال بعيد الفصح اليهوديّ في ظلّ الاحتلال الرومانيّ. فعيد الفصح يرمز إلى تحرّر اليهود من نير المصريّين. فكيف يحتفلون بالحرّيّة وهم تحت عبوديّة الاحتلال الرومانيّ؟ لا شكّ في أنّ هذا الوضع خلق مشاعر مؤلمة لدى هؤلاء المحتفلين.

هل كان مقتل الجليليّين عقابًا إلهيًّا على خطاياهم؟ جواب يسوع هو لا. هل كان عقابًا إلهيًّا لهم لأنّهم خطاة أكثر من سائر الجليليّين؟ جواب يسوع هو أيضًا لا. ما هو تفسير هذا الحدث إذًا؟ التفسير التاريخيّ يمكن أن يكون أنّ مقتل الجليليّين على يد بيلاطس وخلط دمهم بذبائحهم هو عقوبة رومانيّة على جرم قاموا به، ربّما نوع من التمرّد، إلّا إذا كان هناك تجنٍّ من السلطات الرومانيّة، رغم استبعاد هذا الاحتمال. أما التفسير اللاهوتيّ، فيمكن أن يكون أنّ يسوع يطلق دعوةً إلى التوبة، وذلك رغم أنّ جوابه أتى مقتضبًا. ولكنّنا نعرف من مواقف يسوع في مواقع أخرى أنّ ما يحدث للإنسان من شرور وكوارث ومصائب وأمراض ليس عقابًا إلهيًّا للإنسان على ما ارتكبه من خطايا. لذا، ليس بالضرورة أن يكون موضوع التوبة هو بيت القصيد هنا. في القصّة الشهيرة للمولود أعمًى في الإصحاح التاسع من إنجيل يوحنّا، يسأل التلاميذ يسوع: «يا معلّم من أخطأ هذا أم أبواه حتّى ولد أعمى؟». فيجيبهم يسوع: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه».

إذا لم تكن الكوارث والأزمات والأمراض عقابًا من الله، ما هي إذًا؟ الجواب الذي أقترحه يتلخّص بما يأتي: إذا كانت هذه الكوارث بشريّةً، كالقتل والحروب، فهي نتيجة اعتداء إنسان على إنسان آخر. ربّما يكون هذا الاعتداء عمل شرّ، وربّما يكون ذا طابع قانونيّ كضرورة ضبط الوضع أو الدفاع عن النفس. ولكن ما ذنب الضحيّة؟ الجواب هنا، في رأيي: لا ذنب للضحيّة في شيء.

ولكن ماذا لو لم تكن الكوارث فعلًا بشريًّا، حادثًا عرضيًّا، مثلًا، أو مرضًا أو زلزالًا أو وباءً مثل كورونا؟ هنا نستمدّ الجواب من موقف يسوع من كارثة أخرى هي سقوط برج سلوام ومقتل ثمانية عشر شخصًا في هذا الحادث (لوقا ٤/١٣). هل كان هؤلاء مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم؟ جواب الربّ يسوع كان لا مرّةً أخرى. إذًا، سواء أكانت الكارثة ناجمةً عن شرور شخص ما مثل بيلاطس أم عن حادث مثل سقوط البرج، فإنّ تفسير يسوع للكوارث التي تصيب إنسانًا أو مجموعةً من الناس واضح: هي ليست عقابًا من الله على الخطايا والذنوب كما لو كان مَن وقعوا ضحيّتها أكثر شرًّا من غيرهم. فلو كان كلّ إنسان سيعاقب على خطيئته بكارثة ما، لما بقي أحد على قيد الحياة. وكما قال الربّ يسوع للكتبة والفريسيّين الذين جاؤوا إليه بالمرأة الزانية كي يرجموها: «من كان منكم بلا خطيّة فليرمها أوّلًا بحجر» (يوحنّا ٧/٨). كذلك يكتب بولس في الرسالة إلى أهل رومية: «الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (٢٣/٣).

ما هي، إذًا، الكوارث والمصائب والأوبئة والأمراض؟ هي جزء من هذه الحياة المنكسرة والخليقة المجروحة التي تحتاج إلى خلاص نهائيّ يقودها إلى حياة كاملة. لا يستفيض يسوع في التفسير اللاهوتيّ للأحداث المأساويّة التي جرت، بل ينتقل إلى بعد جديد ويحمل سامعيه إلى موقف يبقى هو الأهم في نظره، فيقول: «إن لم تتوبوا، فجميعكم تهلكون». لقد رأى الربّ أنّ التوبة، التي لا تعني الندم على الخطايا فقط، بل أيضًا الاستدارة والرجوع إلى الله، هي الموقف الصحيح الذي

هل الكوارث والأوبئة عقاب من الله للبشر؟

القسّ سلام حنا

يجب أن نفكّر فيه دائماً ونعيشه سواء أوُجدت الكوارث أم لم توجد. فالرجوع إلى الله سيساعد كلّ إنسان على تحمّل الكوارث والصعاب، إذ بالتوبة يختبر الإنسان عناية الله له وسط الألم. وهذا أشدّ ما يحتاجه الإنسان، أي أن يحتمي من الألم ويخفّف ألمه، لا أن يفسّر ألمه فقط. بالتوبة والرجوع إلى الله ينال الإنسان ضمانًا للخلاص المستقبليّ الذي ينتظر المؤمنين ليقودهم إلى الحياة الأبديّة.

ليس الهلاك، كما رآه الربّ يسوع، هو الكوارث والأزمات التي تصيب الإنسان، بل الهلاك هو غياب التوبة، أي الابتعاد عن الله. هذا الابتعاد هو الخطيئة التي تهلك الإنسان، وهو ما يجب أن يتلافاه أيّ إنسان. أمّا الكوارث والأزمات والأمراض، فهي اختبارات حياتيّة يختبرها البشر كجزء من حياتهم في العالم من دون أن يسبّبوها أو أن يكون لهم ذنب فيها. في حالة الابتعاد عن الله، لن يشعر الإنسان بعناية الله وسلامه، اللذين يساعدانه بعمق على مقاربة الأزمات عبر موقف مختلف عن موقف الشخص الذي لا يرى في الحياة أيّ مرساة، ويعتقد أنّ الوجود تتحكّم فيه الفوضى والعبثيّة.

هذه هي دعوة الربّ يسوع للناس جميعهم، أي أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله، سواء كانت هناك كوارث وأزمات أو لم تكن. فالتوبة إلى الله والإيمان به هما سفينة الخلاص لكلّ إنسان. التوبة لا تواجه أزمات مثل الأوبئة والمرض، ولا تحلّها، ولا تقضي عليها. ولكنّ الرجوع إلى الله يساعد الإنسان على التعامل مع هذه الأزمات ومواجهة الأوبئة والأمراض بعقليّة وذهنيّة مختلفتين تجعلان الإنسان ينظر إلى معنًى أعمق للحياة والوجود يتجاوز في مداه وأبعاده الخبرات الطبيعيّة والآنيّة التي تختبرها البشريّة وتمرّ بها في العالم.